بسم الله الرحمن الرحيم

الإيمان بالله أصل العقائد كلها

إن الإيمان بالله ـ أي بالذات الغيبية العلوية المختارة القاهرة الجديرة بالطاعة والعبادة ـ هو روح الدين ، أي دين ، وكذلك هو روح الإسلام ، وأصل عقائده كلها ، كما بيّنها كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فهذا القرآن الكريم حين يتحدث عن أركان الإيمان ومتعلقاته يجعل الإيمان بالله أولها وأصلها ، كما في قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) . وقوله : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (البقرة:١٧٧). وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١٣٦).

والرسول الكريم يقول في حديث جبريل المشهور حين سأله عن الإيمان : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره».

فالإيمان بالله هو الأصل ، وكل أركان العقيدة الأخرى مضافة إليه وتابعة له ، فأنت بعد أن تؤمن بالله جل شأنه ، تؤمن ـ بالتالي ـ بملائكته وكتبه ورسله ولقائه وحسابه وقضائه وقدره . فالإيمان بهذه كلها فرع عن الإيمان بالله ، ومبني عليه . ولا يتصور الإيمان بالرسول إلا بعد الإيمان بالمرسل ، ولا بالجزاء والحساب إلا بعد الإيمان بالمجازي والمحاسِب .

والإيمان بالله ، يتضمن الإيمان بوجوده بالضرورة ، والإيمان بوحدانيته في ربوبيته وألوهيته ، والإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا التي يتجلى فيها اتصافه بكل كمال يليق به ، وتنزهه عن كل نقص .

وقد تبين لنا من دراستنا السابقة : أن وجود الله تعالى حقيقة لا ريب فيها ، بل هي أظهر الحقائق على الإطلاق ، شهدت بذلك الفطر السليمة ، ودلت على ذلك العقول الرشيدة ، وأكد ذلك الراسخون في العلم بما شهدوا في الآفاق وفي أنفسهم من عجائب الإبداع والتسوية والتقدير والهداية .

وإذا كانت هذه الحقيقة الكبرى قد خفيت على بعض الناس ، فذلك على نحو ما قيل : من شدة الظهور الخفاء .

وإذا كان آخرون قد كابروا الفطرة المشتركة بين البشر ، وعاندوا منطق العقل والعلم ، وجحدوا بالله تعالى ، فهم بمثابة الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها .

● تركيز الإسلام على التوحيد :

والحق أن الإسلام لا يركز على الإيمان بوجود الله تعالى لاعتباره ذلك ضرورة فطرية ، ولكنه يركز غاية التركيز على عقيدة أخرى ، ضل الناس في شأنها ضلالاً بعيدًا . وتلك هي عقيدة التوحيد التي هي لب عقائد الإسلام ، وروح الوجود الإسلامي : الإيمان بإله واحد فوق هذا الكون ، له الخلق والأمر ، وإليه المصير ، هو رب كل شيء ، ومدبر كل أمر ، هو وحده الجدير أن يُعبد ولا يُجحد ، وأن يُشكر ولا يُكفر ، وأن يُطاع ولا يُعصى ، ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝١٠٢ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ (الأنعام: ١٠٢، ١٠٣).

لقد جاء الإسلام والشرك بالله ضارب أطنابه في كل أنحاء العالم ، ولم يكن يعبد الله وحده إلا أفراد قلائل من الحنفاء في جزيرة العرب ممن يتعبدون على ما بقي سالمًا من ملة إبراهيم ، أو بقايا من أهل الكتاب سلموا من تأثير التحريفات الوثنية التي أفسدت الأديان الكتابية .

وحسبنا أن نعلم أن أمة كالعرب في جاهليتها غرقت في الوثنية إلى أذقانها . حتى إن الكعبة التي بناها محطم الأصنام لعبادة الله وحده ، بات في جوفها وحولها ثلاثمائة وستون صنمًا ، وحتى غدا في كل دار من دور مكة صنم يعبده أهلها .

بل روى الإمام البخاري عن أبي رجاء العطاردي قال : « كنا نعبد الحجر ، فإذا وجدنا حجرًا هو خير منه ألقيناه وأخذنا الحجر الآخر ، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا حثوة من تراب ، ثم جئنا بالشاة ، فحلبنا عليه ، ثم طفنا به »!

وأكثر من ذلك أنهم كانوا يتخذون إلهًا من « العجوة » ، وكثيرًا ما كان يصطحبه أحدهم في سفره ، فإذا فني زاده وغلبه الجوع لم يجد بدًّا من أن يأكله! وإلى هذا النوع من الآلهة يشير القرآن بقوله : ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣).

وفي بلد كالهند بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس لميلاد المسيح ، حتى قُدِّرَ عدد الآلهة حينئذ بـ٣٣٠ مليونًا .

حتى الأديان السماوية دخلتها الوثنية فكدرت صفاءها ، ولوثت نقاءها : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣٠) . فالمسيح عند النصارى إله حق من إله حق !

وهذا لون من الشرك انتشر في كثير من الأمم أن لله أبناء أو بنات يُعبدون من دون الله ، أو مع الله ، كما زعم ذلك الهنود قديمًا مع كرشينا وبوذا . وكما زعم العرب بالنسبة للملائكة الذين قالوا عنهم : بنات الله! وفي ذلك يقول القرآن : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء:٢٦-٢٨).

من أجل هذا عني الإسلام كل العناية بالدعوة إلى توحيد الله تعالى ، علمًا وعملاً ، ومقاومة الشرك اعتقادًا وسلوكًا : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (البقرة:١٦٣).

● دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى :

لقد دلت على وحدانية هذا الإله وتفرده كل الدلائل فطرية وعقلية وسمعية . فالإنسان إذا تُرك لفطرته وجبلته ـ دون تدخل أو تلقين ـ يجد نفسه متجهًا إلى قوة عليا فوق الإنسان وفوق الكون ، يدعوها رَغَبًا ورَهَبًا ، ولا سيما عندما تأخذ بخناقه الشدائد ، وتعصف به الكروب ، وينفض يده من عون الناس من حوله ، هنالك يتجه مخلصًا إلى ربه ، طارحًا ما كان يتوجه إليه ـ بتأثير الوهم ، أو الجهل ، أو الهوى ، أو البيئة ـ من آلهة زائفة من البشر أو الحيوان أو النبات أو الجماد !

وهذا ما أشار إليه القرآن فيما ذكرناه من قبل من قصة ركاب السفينة المشرفة على الغرق : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (يونس: ٢٢).

وقد ذكرنا هذا مثلاً باعتباره دليلاً على وجود الله تعالى ، وهو نفسه دليل على وحدانيته ، فإن الإنسان حين تجرد من

العوامل الطارئة ، ورجع إلى خالص فطرته ، لم يتجه بدعائه ساعة الشدة والأزمة إلى الصنم أو الوثن ، بل اتجه إلى الله وحده ربه ورب كل شيء ، كما قال تعالى في وصف نفسية هؤلاء المشركين : ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ .

● **دلالة العقل :**

دل العقل كذلك على أن وراء هذا الكون مكونًا واحدًا ، فهذا الكون العريض الفسيح ـ على تنوع ما فيه من مخلوقات ، صغيرة وكبيرة ، حية وجامدة ، ناطقة وصامتة ، عاقلة وغير عاقلة ، علوية وسفلية ـ تحكمه قوانين واحدة ، تنطبق على الذرة ، كما تنطبق على المجرة ، حتى إن العالم الطبيعي حين ينظر إلى الذَّرة يجدها في تكوينها مشابهة للمجموعة الشمسية في تكوينها ولا فرق .

هناك قانون عام كقانون « الزوجية » ـ أعني الازدواج أو الثنائية في المخلوقات كلها ـ عرفه الناس قديمًا في الإنسان والحيوان في صورة الذكورة والأنوثة ، ولاحظوه في بعض النباتات كالنخل . ثم اكتشف العلم أن النباتات كلها

فيها تذكير وتأنيث ، بل الجمادات فيها هذا الازدواج في صورة الموجب والسالب في الكهرباء ونحوها ، بل الذرة التي هي لبنة البناء الكوني كله تتكون من شحنة موجبة وأخرى سالبة إلى جوار النواة . وكان هذا الاكتشاف العلمي الحديث تصديقًا لما جاء به القرآن منذ أربعة عشر قرنًا حين قرر هذه الحقيقة بمثل قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (يس:٣٦). وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات:٤٩) . وهذه الكلية ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ حقيقة لا مجازية ولا أغلبية .

ومن الدلائل على وحدة هذا الكون : ما نشاهده بين أجزائه من تعاون وتناسق وتناغم ، بحيث يؤدي كل جزء منها مهمته بانتظام دون أن يصطدم بالأجزاء الأخرى أو يعوق سيرها ، أو يجور عليها . بل بالعكس يمدها بما تحتاج إليه مما عنده ، ويأخذ منها ما يفتقد هو إليه مما عندها ، كما رأينا من المبادلة القائمة بين المملكة الحيوانية والمملكة النباتية .

فهل عقدت اتفاقية بينهما لتحقيق هذه المقايضة الضرورية لحياة كل منهما؟ أم أن هناك مدبراً أعلى نظم العلاقة بين المملكتين على هذا النحو العجيب؟

ومن الذي نظَّم العلاقة بين الشمس والأرض ، وبين الأرض والقمر ، وبين القمر والشمس ، وبين كواكب المجموعة الشمسية بعضها ببعض ، وبين المجموعة الشمسية وملايين المجموعات النجمية الأخرى في مجرتنا الكبرى ، وبين مجرتنا وملايين المجرات الأخرى ، بحيث تتعاون ولا تتصادم؟ ويجري كل شيء بحساب وميزان ﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٥-٧). ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس: ٤٠).

إن هذه الوحدة المشهودة بعين البصر وعين البصيرة في الخلق كله ، لدليل ناصع على وحدة خالقه ، كما أنها ـ بالضرورة ـ دليل على وجوده .

ولو كان وراء هذا الكون أكثر من خالق لاضطرب نظامه ، واختل ميزانه ، ورأينا أثر كل خالق في الجزء الذي خلقه وهيمن عليه . وبذلك تختلف النواميس الكونية ، وتتناقض سنن الخلق ؛ نتيجة لاختلاف إرادات الخالقين ، وهذا يؤدي بالتالي إلى فساد الكون كله لا محالة .

وإلى هذا الدليل الكوني يشير القرآن الكريم حيث يقول عن السموات والأرض : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وفي سورة أخرى يقول القرآن : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(المؤمنون: ٩١).

ثم إن القول بوحدة الرب الأعلى ـ فضلاً عن دلالة الوحدة الكونية عليه ـ هو الذي يتفق مع منطق العقل البشري السوي . فالعقل ينشد الوصول إلى الوحدة من وراء الكثرة . ويتطلب أن يسير من الأسباب المتعددة إلى سبب واحد ، هو سبب الأسباب أو علة العلل . وهذا ما جعل بعض الفلاسفة يطلقون على خالق الكون « العلة الأولى » .

● **دلالة النقل :**

ومع دلالة الفطرة والعقل ، جاءت الدلائل السمعية ، بما تناقلته الأجيال عن كتب الله تعالى ورسله إلى الأمم في مختلف الأمصار والأعصار من الدعوة إلى الإيمان بإله واحد لا شريك له ، وإفراده تعالى بالعبادة . وإنكارهم على أقوامهم الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا .

وهذا القرآن الوثيقة الإلهية المحفوظة التي تتمثل فيها هداية السماء للأرض ، يقص علينا من نبأ المرسلين الذين بعثوا جميعًا بعقيدة التوحيد ، وهذا ما احتج به القرآن على المشركين الذين عبدوا مع الله آلهة أخرى بأنهم ليس معهم دليل من العقل ولا من النقل .

لنستمع معًا إلى هذا المقطع من سورة الأنبياء حيث يتحدث القرآن عن المشركين بصيغة التوبيخ والإنكار : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء:٢١،٢٢) . ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡۖ هَٰذَا ذِكۡرُ مَن مَّعِيَ وَذِكۡرُ مَن قَبۡلِيۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡحَقَّ فَهُم مُّعۡرِضُونَ ۝٢٤ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء:٢٤،٢٥).

وفي سورة «الأحقاف» يطالبهم القرآن بدليل نقلي على ما يدعون: ﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

• التوحيد جوهر الإيمان بالله:

وإذا عرفت ـ يا أخي ـ أن الإيمان بالله هو جوهر العقائد الإسلامية جميعًا فواجبك أن تعرف هنا كذلك أن توحيد الله هو جوهر الإيمان بالله تعالى. وإذا تجرد عن التوحيد الحق، كان كفرًا وشركًا، ورجسًا وزورًا، وظلمًا عظيمًا، وضلالاً مبينًا.

ولهذا كان لزامًا عليك أيها المسلم أن تعرف حقيقة التوحيد الذي أمر الله به، وأقام عليه دينه، وأنزل به كتابه، وبعث به رسوله، وعلق خيري الدنيا والآخرة على تحقيقه وتجريده، وجعل الجنة لأهله وأنصاره، والنار لخصومه وأعدائه ـ فإن كثيرًا من الطوائف نسبوا أنفسهم إلى التوحيد، وادعوا أن ما هم عليه هو التوحيد الخالص، وما عليه غيرهم هو الباطل.

وكل يدعي وصلاً لليلى وليلى لا تقر لذا وذاكا!

فأنصار فلسفة أرسطو ومن تبعه ممن سموا «فلاسفة المسلمين» تجد التوحيد عندهم يتمثل في: إثبات وجود مجرد عن الماهية والصفة، بل هو وجود مطلق لا يعرض لشيء من الماهيات، ولا يقوم به وصف، ولا يتخصص بنعت، بل صفاته كلها سلوب وإضافات.. حتى انتهى توحيد هؤلاء إلى إنكار ذات الرب الذي دعت إليه أديان السماء، وإنكار خلقه للعالم، وتدبيره له، وعلمه بكل ما يجري فيه.. فهم يقولون بقدم الأفلاك، وأن الله لا يبعث من في القبور، وأن النبوة مكتسبة، وأنها حرفة من الحرف.. وأن الله لا يعلم شيئًا من الموجودات المعينة ألبتة، وأنه لا يقدر على قلب شيء من أعيان العالم، ولا شق الأفلاك ولا خرقها.. وأنه لا حلال ولا حرام، ولا أمر ولا نهي، ولا جنة ولا نار.. فهذا هو توحيد هؤلاء!!

وهل أتاك نبأ دعاة «وحدة الوجود»؟ إنهم يزعمون أنهم وحدهم الموحدون، ومن عداهم فهم المعددون. فهل علمت ما توحيدهم المزعوم؟ توحيدهم: أن الحق المنزه هو عين الخلق المشبه. وأنه سبحانه هو عين وجود كل موجود

وحقيقته وماهيته . . وأنه آية كل شيء ، وله فيه آية تدل على أنه عينه . وهذا عند محققيهم من خطأ التعبير . بل هو نفس الآية ، ونفس الدليل ، ونفس المستَدِل ، ونفس المستدَل عليه . فالتعدد بوجود اعتبارات وهمية لا بالحقيقة والوجود . فهو ـ عندهم ـ عين الناكح ، وعين المنكوح ، وعين الذابح ، وعين المذبوح ، وعين الآكل ، وعين المأكول . وهذا عندهم هو السر الذي رمزت إليه هوامس الدهور الأولية ، ورامت إفادته الهداية النبوية ، كما قال محققهم وعارفهم ابن سبعين!

ومن فروع هذا التوحيد وثماره : أن فرعون ونمروذ وأمثالهما مؤمنون كاملو الإيمان ، عارفون بالله على الحقيقة . وأن عُبَاد الأصنام إنما عبدوا عين الله لا غيره . فهم على الحق والصواب . . وأن لا فرق في التحليل والتحريم بين الأم والأخت وبين الأجنبية ، ولا بين الماء والخمر ، ولا بين الزواج والزنا . الكل من عين واحدة ، بل هو العين الواحدة .. وأن الأنبياء ضيَّقوا الطريق على الناس ، وبعَّدوا عليهم المقصود ، والأمر وراء ما جاءوا به ودعوا إليه!!

وإن ننس فلا ننسى هنا «توحيد المعتزلة» الذين سموا أنفسهم أهل التوحيد والعدل. وجعلوا التوحيد أول أصولهم الخمسة.

تُرى ما مضمون هذا التوحيد؟

إنه إنكار قَدر الله تعالى، وجحد عموم مشيئته للكائنات، وقدرته عليها.. ومتأخروهم ضموا إلى ذلك توحيد «الجهمية» فأصبحت حقيقة التوحيد عندهم: إنكار القَدر، وإنكار حقائق الأسماء الحُسنى، والصفات العُلا.

وفي مقابل هذا التوحيد الأعرج يجيء توحيد «الجبرية» ومضمونه عندهم: تفرد الرب بالخلق والفعل، وأن العباد غير فاعلين على الحقيقة، ولا محدثين لأفعالهم، ولا قادرين عليها، وأن أفعالهم الاختيارية لا تعدو أن تكون مثل حركات الأشجار عند هبوب الرياح، وأن الرب تعالى لم يفعل لحكمة ولا غاية تطلب بالفعل، وليس في المخلوقات قوى وطبائع وغرائز وأسباب، بل ما ثَمَّ إلا مشيئة محضة، ترجح مثلاً على مثل، بغير مرجح ولا حكمة ولا سبب ألبتة[1].

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم ج٣ ص٤٤٧-٤٤٩، ط. السنة المحمدية.

وهل يجهل ذو بصيرة توحيد المضللين من عوام المسلمين ، وتوحيد مضلليهم ممن يَدَّعون المشيخة ، ويتزيون بزي الدين ورجاله الصالحين؟

إنهم يدعون غير الله ، ويرجون ويخافون غير الله ، وممن ادعوا لهم أنهم أولياء أو أقطاب أو أوساط أو أبدال أو غير ذلك من الألقاب .

فهم يطوفون بأضرحتهم يسألونهم أكثر مما يسألون الله ، ويستعينونهم أكثر مما يستعينون الله . يهرعون إليهم في الملمات ، يطلبون منهم قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، بدعوى أنهم وسطاء بينهم وبين الله ، ولولا الواسطة لذهب ـ كما قيل ـ الموسوط!

وقبل هذا كله لا يغيب عنك «توحيد النصارى» ، فقد زعموا أن ديانتهم ديانة توحيدية ، وأنهم لم يخرجوا من دائرة التوحيد ، برغم اعتقادهم وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة . . وهي : الأب والابن والروح القدس ، فهم عائلة أو شركة مقدسة : الإله الأب ، والإله الابن ، والأقنوم الثالث المسمى «روح القدس» .

فإذا قلت لهم : كيف تكونون موحدين مع قولكم بهؤلاء الثلاثة؟ قالوا : الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة!! ولا مجال

للعقل والمنطق في أمر العقيدة ، فشعارهم هنا : اعتقد وأنت أعمى!!

من أجل ذلك كان من أوجب الواجبات بيان حقيقة التوحيد الذي دعا إليه الإسلام ، وبنى عليه تعاليمه كلها ، حتى يتبين الحق من الباطل .

● **التوحيد المأمور به :**

إنه توحيد اعتقادي علمي ، وتوحيد عملي سلوكي .

وبعبارة أخرى . . هما توحيدان لا يغني أحدهما عن الآخر : توحيد في المعرفة والإثبات والاعتقاد . . وتوحيد في الطلب والقصد والإرادة .

فلا يُقبل إيمان امرئ عند الله ما لم يقم بتوحيده سبحانه : علمًا واعتقادًا ، بأن يؤمن بأنه تعالى واحد متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ، لا شريك له ولا شبيه له ، ولا ولد ولا والد له .

وتوحيده كذلك : قصدًا وعملاً ، بأن يفرده عز وجل بالعبودية الكاملة ، والطاعة المطلقة ، والذل له والإنابة إليه والتوكل عليه والخشية منه والرجاء فيه . . إلخ .

والتوحيد بالمعنى الأول هو الذي أفصحت عنه ودلت عليه بوضوح سورة «الإخلاص» بتمامها، وأول سورة «آل عمران»، وأول سورة «طه»، وأول سورة «الم السجدة»، وأول سورة «الحديد»، وآخر سورة «الحشر».. وغيرها.

والتوحيد بالمعنى الثاني هو ما تضمنته، ودعت إليه، ودلت عليه، سورة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وجملة سورة «الأنعام»، وأول سورة «الأعراف» وآخرها، وأول سورة «يونس» ووسطها وآخرها، وأول سورة «الزمر» وأواخرها.. وغالب سور القرآن. بل قال العلامة ابن القيم: إن كل سورة في القرآن متضمنة لنوعي التوحيد.

وقد جرى كثير من المصنفين قديمًا وحديثًا، على تسمية النوع الأول من التوحيد «توحيد الربوبية»، وعلى تسمية النوع الثاني «توحيد الإلهية» أو «الألوهية».

وأحسبك أيها القارئ الكريم في حاجة إلى إلقاء مزيد من الضوء على معنى كل من هذين المصطلحين، حتى تكون على بينة من ربك، وبصيرة من دينك، وليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة. فما معنى توحيد الربوبية؟ وما معنى توحيد الألوهية؟

• أولاً : توحيد الربوبية

ومعناه اعتقاد أنه تعالى رب السموات والأرض وخالق مَنْ فيهما وما فيهما ، ومالك الأمر في هذا العالم كله لا شريك له في ملكه ، ولا مُعَقِّب عليه في حكمه ، فهو وحده رب كل شيء ، ورازق كل حي ، ومُدَبِّر كل أمر ، وهو وحده الخافض الرافع ، المعطي المانع ، الضار النافع ، المعز المذل ، وكل مَنْ سواه وما سواه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا ، إلا بإذن الله ومشيئته . وهذا القسم من التوحيد لم يجحده إلا الماديون الملحدون الذين ينكرون وجود الله تعالى ، كالدهريين قديمًا ، والشيوعيين في عصرنا . ومثل الماديين «الثنوية» الذين يعتقدون أن للعالم إلهين . إلهًا للنور وإلهًا للظلمة ، أما معظم المشركين كالعرب في الجاهلية فكانوا يعترفون بهذا النوع من التوحيد ولا ينكرونه ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت:٦١). ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت:٦٣). ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ

وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٨٤-٨٩).

فهذه أجوبة المشركين ، تدل على أنهم يقرون بربوبية الله تعالى للكون وتدبيره لأمره ، وكان مقتضى إيمانهم بربوبيته تعالى للكون أن يعبدوه وحده ولا يشركوا بعبادة ربهم أحدًا ، ولكنهم أنكروا القسم الآخر من التوحيد هذا ، وهو توحيد الإلهية أو الألوهية .

• ثانيًا : توحيد الألوهية

ومعنى توحيد الألوهية ، إفراد الله تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة ، فلا يُعبد إلا الله وحده ، ولا يُشرك به شيء في الأرض أو في السماء . ولا يتحقق التوحيد ما لم ينضم توحيد الإلهية إلى توحيد الربوبية ؛ فإن

هذا وحده لا يكفي ، فالعرب المشركون كانوا يقرون به ، ومع هذا لم يدخلهم في الإسلام ؛ لأنهم أشركوا بالله ما لم يُنَزِّل به سلطانًا ، واتخذوا مع الله آلهة أخرى ، زعموا أنها تقربهم إلى الله زلفى ، أو تشفع لهم عند الله .

والنصارى لم ينكروا أن الله رب السموات والأرض ، ولكنهم أشركوا به المسيح عيسى ، واتخذوه إلهًا من دون الله ، واعتبر القرآن هؤلاء وأولئك كفارًا تحرم عليهم الجنة ، ويخلدون في النار .

ومنذ أقدم العصور ضل الناس عن هذا التوحيد ، فعبدوا من دون الله آلهة شتى . عبد قوم نوح : وَدًّا وسواع ويغوث ويعوق ونسرًا . . وعبد قوم إبراهيم : الأصنام . . وعبد قدماء المصريين : العجل . . وعبد الهندوس : البقر . . وعبد أهل سبأ : الشمس . . وعبد الصابئون : الكواكب . . وعبد المجوس : النار . . وعبد العرب : الأوثان والحجارة . . وعبد النصارى : المسيح وأمه . . وعبدوا الأحبار والرهبان من دون الله . فهؤلاء كلهم مشركون ؛ لأنهم لم يفردوا الله تعالى بالعبادة التي لا تُستحق لأحد غيره .

ولكن ما معنى « العبادة » التي هي من حق الله وحده؟

● معنى العبادة :

العبادة كلمة تتضمن معنيين امتزج أحدهما بالآخر ، فصارا شيئًا واحدًا . وهما نهاية الخضوع مع نهاية الحب . فالخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل هو معنى العبادة . فأما حب بلا خضوع ، أو خضوع بلا حب ، فلا يحقق معنى العبادة . . وكذلك بعض الخضوع مع بعض الحب لا يحقق العبادة ، بل لابد من كل الخضوع مع كل الحب .

● صور العبادة وأنواعها :

والعبادة ليست مقصورة على صورة واحدة ، كما يخيل لكثير من الناس ، بل لها أنواع وصور عديدة . .

(أ) فمنها : الدعاء ـ أي الاتجاه إلى الله تعالى بطلب نفع أو دفع ضر ، أو رفع بلاء ، أو نصر على عدو ، أو نحو ذلك . فهذا الاتجاه بالسؤال المنبعث من القلب لله تعالى هو مخ العبادة وروحها كما في الحديث : « الدعاء هو العبادة » . (رواه الترمذي) .

(ب) ومنها : إقامة الشعائر الدينية ، مثل : الصلاة والصيام والصدقة والحج والنذر والذبح وما شابه ذلك . فلا يجوز أن

توجه هذه الشعائر إلا لله (لا يجوز الصلاة لغير الله ولا الصيام والصدقة والنذر والذبح وغيرها من الشعائر).

(جـ) ومنها : الانقياد والإذعان الديني لما شرع الله من أحكام ، أحل بها الحلال وحرَّم الحرام ، وحد الحدود ، ونظم شئون الحياة ، فلا يجوز لمن آمن بالله ربًا أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين ، يخضع لها ويحكِّمها في حياته بغير سلطان من الله ، فهذا ضرب من العبادة .

● أهمية توحيد الألوهية :

وهذا القسم من التوحيد هو أعظم أقسامه وأهمها ، وهو الذي وَجَّهَ الرسل الكرام أكبر عنايتهم إليه ، كما سيأتي . . وهو الذي يتبادر إلى الذهن عند إطلاق كلمة « التوحيد » .

وهو الذي بعث الله به رسله ، وأنزل كتبه . وأرى الناس آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، ومن أجله حُقت الحاقة ، ووقعت الواقعة ، ونُشرت الدواوين ، ونُصبت الموازين ، وقامت سوق الجنة والنار ، وانقسم الناس إلى شقي وسعيد . فريق في الجنة وفريق في السعير .